بيمارستان سيدي فرج بفاس

مدينة فاس

ذ. شكيب عبد الفتاح

أستاذ الأمراض التعفنية بكلية الطب و الصيدلة بالدار البيضاء

يزخر تاريخ المؤسسات العلمية بالمغرب بمحطات مشرقة تبقى في أغلبها مجهولة من لدن كثير من الأطباء و إن كانت الأبحاث التي أجريت لحد الآن لم تمكننا من معرفة نوع المؤسسات العلمية التي كانت في عهد الأدارسة و المرابطين لكنها مكنتنا من معرفة التقدم الذي حصل في هذا المضمار في عهد الموحدين و المرابطين.

على مر الحضارات التي تعاقبت على حكم المغرب، كان المغاربة يبدعون في مجالات مختلفة و يقدمون أمثلة عديدة على التطور الكبير الذي حققوه في مجال الطب و العمارة و العلوم و الأدب و الشعر، حيث شهدت هذه الحضارة في عهد المرينيين اهتماما كبيرا بصحة المواطنين، و تجلى هذا الاهتمام في بناء المستشفيات التي كان يطلق عليها آنذاك "البيمارستانات" وهي كلمة فارسية مركبة من كلمتين : "بيمار" بمعنى : مريض آو عليل أو مصاب، "ستان" بمعنى دار أو مكان، ثم اختصرت في الاستعمال فصارت مارستان وتعني دار ذوي العاهات و المرضى.

شهدت هذه المؤسسات اهتماما خاصا ببناء و تطوير أساليب عملها، حيث ستصبح محجا لعابري السبيل و مكانا للعناية بالصحة النفسية و الجسدية للمرضى، بل و معهدا للتجارب الطبية والصيدلية و عيادة بيطرية لعلاج الطيور المصابة. و لم تقتصر العناية في المارستانات على علاج الفقراء دون الأغنياء بل كان يستقبل حتى الغرباء، حيث توزع بناءها و إنشاءها على مختلف الحواضر المغربية الكبرى كفاس، مراكش ،مكناس ،سلا ،الرباط و آسفي.

يعتبر بيمارستان سيدي فرج بمدينة فاس من بين أهم البيمارستانات التي أنشأت في تاريخ المغرب حيث استمر في أداء دوره إلى حدود منتصف القرن العشرين. أسسه السلطان أبو يوسف يعقوب سنة 685 هجرية الموافق لـ1286م وقد جدده أبو عنان عام 766 هجرية وأدخل عليه زيادات عظيمة. وذكر الوزان الفاسي في معرض وصفه لمدينة فاس مجموعة من المستشفيات أقيمت بالمدينة، يقول الوزان: "توجد مستشفيات ومدارس نهاية في الرونق والإتقان وكل غريب دخل المدينة له أن يقيم بهذه المستشفيات مدة ثلاثة أيام، وتوجد خارج المدينة عدة مستشفيات لا تقل إتقانا عن التي بداخلها".

و يعتقد أن تسمية بيمارستان سيدي فرج جاءت بكونه بني تبركا بولي صالح مجاور لمكان البيمارستان، لكن لم يؤكد تاريخيا وجود أي ضريح يحمل اسم سيدي فرج في

محيط البناية حيث ذكر في هذا الصدد الكتاني في سلوة الأنفاس: " ...على أنه لم يدفن به أي شخص كان يسمى بهذا الاسم، وليس به قبر وإنما بنى هذا المكان أحد السلاطين ليضم مرضى المسلمين الذين لا ملجأ لهم أو مأوى يأوون إليه، وسمي باب الفرج لأن المرضى كانوا يجدون فيه ما يفرج كربهم و قد حبست عليه الحبوس التي كانت تصرف غلتها عليه". و في عام 900 هجرية، تولى رئاسة هذا المارستان طبيب من بني الأحمر الذين نزحوا من الأندلس، اسمه فرج الخزرجي (صاحب فكرة إدخال الموسيقى الأندلسية إلى المارستان كوسيلة من وسائل العلاج النفسي...). ولعل اسم هذا الطبيب إضافة إلى ما أورده صاحب سلوة الأنفاس من الأسباب التي أدت إلى إطلاق اسم سيدي فرج على هذا المارستان.

يقع مارستان سيدي فرج في قلب المدينة القديمة بفاس بالقرب من ضريح مولاي إدريس، بين سوق العطارين و سوق الحناء كما جاء في قول الكتاني في سلوة الأنفاس: "بالقرب من سوق العطارين و سوق الحناء بفاس، مكان يقيم به المرضى الذين بعقولهم مرض و هم المجانين، و يسمى ذلك المكان سيدي فرج... " و كما جاء في شهادة أخرى لالحسن الوزاني (1465-1550) الذي عمل به ككاتب لعدة سنوات. يتألف من طابق أرضي و به 18 غرفة خاصة بعلاج الرجال، وطابق علوي من 22 غرفة خاصة بالنساء. بالإضافة إلى حديقة لاستراحة المرضى و إقامة عروض للموسيقى الأندلسية التي كانت تنظم أسبوعيا في إطار الترويح النفسي للمرضى.

كان الإشراف الإداري العام على بيمارستان سيدي فرج مرتبطاً بمدير مع عدد من الأطر المساعدة تعمل تحت مراقبة ناظر للأحباس يشرف على إدارة الأموال والأوقاف المخصصة له، وعلى سلامة مبانيه و احتياجاته و حسن سير العمل فيه.

كان الفريق الطبي المعالج يتكون من أطباء، صيادلة و ممرضين. و كما جاء في شهادة الحسن الوزاني: "كان الأطباء يعملون تحت إشراف رئيس الأطباء و رؤساء أقسام، و كان المارستان يتوفر على موظفين آخرين كالحراس والطباخون و أشخاص للاعتناء بالمرضى و طاقم موسيقي خاص بالمرضى". و يعتقد أن الأطباء و الصيادلة كانوا يُختارون بعد مباراة يُشرف عليها الطبيب المسؤول على البيمارستان. و يعتقد أن كثيرا من التخصصات الطبية كانت موجودة ببيمارستان سيدي فرج بما فيها الطب الباطني، جراحة العظام، طب العيون و الطب النفسي، ثم اقتصر عملها فيما بعد على علاج الأمراض النفسية و العقلية.

و حفاظا على ضمان استمرارية و جودة الخدمات الصحية، استفاد البيمارستان من المساهمة المباشرة لخزانة الدولة في مصاريف التسيير، و من الأوقاف الكبيرة (الأحباس) التي أمر السلطان المريني يوسف ابن يعقوب بوقفها (بتحبيسها) على بيمارستان سيدي فرج. و لم تكن الأوقاف آنذاك حكرا على السلاطين من دون بقية المواطنين، بل كان الوقف مجالا خصبا للتنافس في الخيرات انخرطت فيه كل مكونات المجتمع، وبذلك توفر البيمارستان على أوقاف كثيرة ساهمت إلى حد كبير في النهوض و الرقي به. و استفاد البيمارستان أيضا من هبات و تبرعات المحسنين، وزادوا على ذلك فخصصوا أموالا لمن يغادرها من الفقراء إلى أن تستقر أحوالهم من الناحية المادية، وهناك حالات كتلك التي يعاني أصحابها من إعاقات أو أمراض مزمنة يستمر أصحابها في الاستفادة من

سوق الحناء سنة 1911

سنة 1993

بيمارستان سيدي فرج بعد تحوله إلى قسارية

الأوقاف إلى آخر أعمارهم، وهذه من أروع صور التكافل الاجتماعي التي عرفها المغاربة في زمن رقيهم وتمدنهم في تلك العهود الغابرة.

و لم يقتصر دور هذه المعلمة العظيمة التي تجسد ذروة الرقي الحضاري على علاج الإنسان فقط بل تعدى ذلك إلى العناية بالحيوانات حيث كان ملجأ للطيور و خاصة طائر اللقلاق، فكان إذا انكسر لقلاق أو أصيب بأي أذى حُمل إلى سيدي فرج فتُصرف جراية لمن يضمده و يطعمه. و كانت هذه العلاجات التي تقدم للطيور طريقة مبتكرة للتدريب و التمرس على العلاج بالنسبة للطلبة المتواجدين في المستشفى. و في هذا الصدد ذكر الدكتور عبد الهادي التازي:".. وكان يعتني بصحة الإنسان والحيوان والطير، و خُصِّصت به أوقاف لعلاج الطيور خاصة طيور اللقلاق إذا انكسرت أو أصيبت بأذى، و يصرف من هذه الأوقاف على من يضمدها ويداويها و يطعمها كما رُصِدت أوقاف للموسيقيين الذين يعزفون للمرضى كل أسبوع ليخففوا عنهم آلامهم، و يُنفَق من هذه الأوقاف على ما يتطلّبه غسل الموتى الغرباء وتكفينهم و إقبارهم ". كل هاته العوامل مكنت مارستان سيدي فرج من الوصول إلى أوج ازدهاره، خصوصا في القرن الرابع عشر الميلادي.

و قد بقي مارستان سيدي فرج يتكفل بجميع الأمراض و التخصصات الطبية كالطب الباطني، جراحة العظام، طب العيون و أيضا الطب النفسي، و لم يصبح مستشفا للأمراض النفسية فقط إلا في بداية عصر الانحطاط خلال القرن السادس عشر ميلادي كما ذكر ذلك حسن الوزاني الذي عمل به ككاتب، و استمر الوضع في التدهور على مر القرون التالية. ويحتمل أن يكون هذا المارستان قد اتخذ كنموذج لبناء أول مستشفى للأمراض النفسية في العالم الغربي (فلانسيا ،إسبانيا 1410م) و توالى بعد ذلك تأسيس العديد من المستشفيات المماثلة في أهم المدن الإسبانية و مدن أمريكا الوسطى و في باقي الدول الأوربية.

وتذكر المصادر التاريخية أن هذا المارستان عرف انتكاسة حقيقية على عهد السلطان المريني أبي سعيد الثاني في مطلع القرن التاسع الهجري، إذ استصدر أبو سعيد فتوى تجيز له اقتراض أوقاف هذا المارستان و غيره من مارستانات فاس لتغطية نفقات الحرب و إدارة باقي شؤون الدولة على اعتبار أن معظم هذه الأوقاف تعود لأجداده. و قد عرفت هذه الفتوى معارضة شديدة داخل الأوساط الفاسية فتراجع دور هذه المستشفيات، حيث إن الرعاية التي كان يتلقاها المرضى النفسيون آنذاك لم تعد ترقى إلى الجودة المطلوبة، و مع ذلك سيستمر مارستان سيدي فرج إلى حدود 1364 هجرية موافق 1944م عندما دمر جزئيا، حيث تحول المبنى بعد ذلك إلى (قيسارية) أي مكان لبيع الملابس و الأدوات المنزلية و هذا هو وضعه الحالي. و تم تحويل المرضى إلى بيمارستان سيدي فرج الجديد بمنطقة "باب الخوخة "سنة 1949 م .

و في سنة 1982 تم بناء مستشفى جديد للأمراض النفسية الذي عولج فيها المرضى بالطرق الطبية الحديثة قبل أن يدشن المستشفى الجامعي الحسن الثاني سنة 2002 م، وانتقل العلاج إلى مرحلة الطب النفسي الحديث.

و رغم مآله الحزين لأنه لم يوف له حقه من العناية لكونه شاهدا على ماض مجيد أريد له أن يفقد بريقه في أذهان الناس، اعتبر بيمارستان سيدي فرج و لمدة قرون معلمة طبية و استشفائية رائدة على المستوى العالمي - و بشهادة المؤخرين الغربيين أنفسهم - حيث كان نموذجا سباقا في مجال الطب عموما و الطب النفسي خصوصا، ساهم في إثراء الحضارة الإنسانية و إبراز الدور الريادي للعلوم الطبية عند المسلمين وخصوصا في بلاد المغرب.

المراجع:

1. "سلوة الأنفاس" و محادثة الأكياس بمن أقبرمن العلماء و الصلحاء بفاس – دار الثقافة 2004
2. كتاب "جامع القرويين"، د. عبد الهادي التازي – دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط الأولى 1973م.
3. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس – دار المنصور 1972
4. الجزنائي علي: جني زهرة الأس في بناء مدينة فاس – نشر المطبعة الملكية1967.
5. الوزان الحسن بن محمد: وصف أفريقيا – دار الغرب الإسلامي 1983.
6. Chakib A, battas O, Moussaoui D. Le maristan de sidi fraj de Fès. Histoire scie med .1994. 28/2 :171-5.
7. Luccioni J. Les maristanes du Maroc, Bulletin Economique et Social du Maroc, 1953, 16, 58 :461-470.
8. Salmon G, Michaux-Bellaire E. Description de la ville de Fès, Archives marocaines vol. 11 №2 , Leroux Edit. Paris 1907.